الانسان

بين غريزة ناشز .. وعقل عاجز

للأستاذ محمود محمد عمارة ـ المدرس بمعهد دسوق

عندما يرسل الانسان فكره عبر هذه الحياة بما فيها ومن فيها .. ليقرأ صفحة الكون المبسوطة هذه .. ويتملاها يقظان واعيا .. سيعود الفكر الطليق حتما وعلى جناحيه حقيقة .. حقيقة يؤمن بها العقل والقلب معا .. هى : أن كل شىء فى هذه الدنيا لم يخلق عبثا .. وانما خلق .. وقدر له أن يحيا تحقيقا لغاية يستهدفها ويسعى اليها ..

والخصائص التي تمكنه من تحقيق غايته مركوزة فى طبعه .. مغروسة فى جبلته :

الذرة التائهة فى جوز الفضاء .. الطائر الخفاق فى مسرى الهـــواء .. السحاب المسخر بين السماء والارض .. الحوت يضرب فى أعماق المحيط .. الوحش يهيم فى أعماء الصحارى .. البـــذرة السحوق فى النخلة الفرعاء .. الريح تئن ، كأنها ضراعات التائبين تصعد فى السماء .

كل ذلك .. انما يسعى نحو هدف :

« وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »

« وما من دابة فى الأرض .. ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم »

وهنـــا يأتى دور الانسان .. كحلقة بارزة فى سلسلة الموجودات .. كخليفة لله فى أرضه :

انه بدوره يسعى نحو هذه الغاية مدركا لها شاعرا بها .

« وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون »

وهـــذا هو أبو الدرداء رضى الله عنه يمـــلأ بؤرة الشعور .. فيهتف بالانسان قائلا :

« ليس الخير أن يكثر مالك وولدك .. ولكن الخير كل الخير .. أن يكثر

علمك ويعظم حلمك . وأن تبارى الناس فى عبـــادة الله .. فان أحسنت حمدت الله على ذلك وان أسأت تبت ورجعت اليه »

رسالة المؤمن اذن أن يعبر الحياة .. فيعطيها ويأخذ منهـــا .. يعطيها أحسن ما عنده .. ويأخذ أحسن ما فيها ..

ومن خلال نعيمها يرى قدرة الله وحكمته وعلمه ..

فقدماه على الارض .. ورأسه هناك فى السماء .. تتلقى فكرة الذهن .. وخطرة القلب .. وهاجس الضمير .

ولكن ، بأى شىء يصل الانسان الى غايته تلك ؟ .. وما هو معراجه فى الصعود اليها .. ؟

أهو الغرائز ؟ .. أم العقل كقائد رشيد لهذه الغرائز .. ؟

ان الغرائز وحدها لا تستطيع أن تحلق بالانسان الى الكمال .. فهى عمياء لا تبصر .. صماء لا تسمع ..

ولكل غريزة نطاقها الخاص بها .. ومطالبها المعينة التى تسعى لتحقيقها دون نظر الى مطالب الغرائز الأخرى ..

ولو ترك لها الحبل على الغارب لانطلقت كل واحدة الى سبيل . فتنتحل شخصية الانسان .. وتتوزع أرض نفسه الى مناطق نفـــوذ .. تعمل كل منطقة على هدم الأخرى .. وستنتهى الحرب حتما بهزيمة الجميع .. أى هزيمة الانسان .. !

من أجل ذلك .. أنعم الله سبحانه وتعالى بالعقل علينا .. ليتسق عمل الغرائز والميول .. ويشبع رغباتها على نطاق معقول ومقبول . حتى لا تضل فى غيابات الجهل فتردى . ولكن العقل مهما أوتى من بعد النظر وصـــدق الفكرة .. فلن يستطيع السير وحده بالسفين الى الشاطىء السعيد !

ذلك .. لأنه كثيرا ما يصطبغ بلون احدى الغرائز .. فيمضى معهـــا بالانسان الى « قمة الهاوية » !

وبدلا من أن يصبح العقل منارة ترشد الى سواء الصراط .. نجده آلة تبرر خطأ البشر .. !

وبالأمس القريب رأينا الغريزة الجنسية تدفع الابن الى أن يشد وثاق أبيه ويرمى به فى البحر .. لأنه منعه من الزواج من بنت الجيران .. !

وهى نفسها دفعت الأم العاشقة الى قتل وحيدها .. بنـــاء على طلب العشيق .. !

.. وتثبيت أقدامه .. حتى لا يضيع هبـــاء .. بين غـــريزة ناشز .. وعقل عاجز .. !

والآن .. وبعد أن عجزت الغرائز عن السير به الى الكمال ..

وحيث عجز العقل أيضا عن قيادة السفين ..

نرى أن جميع الملابسات تهتف : لابد من تدخل قوة عليا لانقاذ الانسان

وغريزة حب التملك تدفع الانسان الى القتل طمعا فى المال ..

والعقل فى جميع ذلك عاجز عن ضبطها وتقليم أظافرها .. ان لم يكن يبرر هذه الجرائم فى بعض الأحيان .. !

وهذا هو الذى حدث بالفعل .. فقد تدخلت السماء ، فأرسلت رســـلا مبشرين ومنذرين ليقوم الناس بالقسط ..

ويبعث الرسول كحمامة سلام .. فى قلبه عقيـــدة يصبها فى قلوب الناس صبا .. فاذا زورق البشرية يتهادى فى خضم الوجود خفاق الشراع

وأنت تستطيع أن تتصور انسانا بلا قـــدم .. بلا يد .. بلا عين .. ولكنك أبدا لا تتخيله بدون عقيدة .. !

فالعقيدة ـ أية عقيدة ـ هى اكسير الحياة . وبدونها لا ينتظم عقـد مجتمع .. ولا يسير قدما أمر أمة تنشد لنفسها الخلود .. لانهـــا تربط أفكارك ومشاعرك بمذهب معين فى السياسة والأدب .. والفن .. أو تصلك بزعيم كبر فى عينيك وملك عليك حياتك ..

فاذا حياتك نشاط وعمران فى سبيل تحقيقها ..

لأنها توقظ فيك مشاعر الكفاح وتربى عندك ملكة المراقبة وتبتعد بك عن سفساف الأمور لتعيش فى عالم أرقى وأنقى ..

يقول المنفلوطى رحمه الله : « ان هـــذه الحياة الحافلة بصنوف الشـقاء وأنواع الآلام .. والتى لا يفيق المرء فيها من غمرة الا الى غمرة .. ولا يثل من عثرة الا الى عثرة .. لا يعين عليها الا عقيدة راسخة يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته .. وتدارکت عثراته .. ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب » .

واذا كانت العقائد السالفة .. والتى تتعلق بمظاهر الحياة .. تربطك بنواح معينة ومحدودة .. فان العقيدة الدينية تربطك بالوجود كله .. فى ماضيه وحاضره ومستقبله .. لأنها تربطك برب هـــذا الوجود سبحانه وتعالى .. وأنت فى ظلها خلية فى الجسم الكبير .. فتعمل عملك للانسان

حيثما كان .. سواء ولد ، أم لم تتفتح له أبواب الحياة بعـــد .. اقرأ ان شئت قوله تعالى :

« من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا .. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » ..

فالقاتل لم يرق دم فرد واحد .. ولكنه اعتدى على معنى الحياة فيه .. ذلك المعنى الذى ينتظم البشرية كلها . وحوله تجتمع الخيوط من كل جنس ولون ..

وهذا أحد مقاييس الدين .. فكلما كان عاما ، تنتظم بشارته ونذارته كل الناس .. كلما كان أولى الأديان وأحراها بالاتباع .

والديانات التى كانت تتنزل على الرسل عليهم السلام .. كانت تجىء أولا تلبية لفطرة الانسان الذى تركزت فيه النزعة الى التدين .. والايمان بالغيب .. وثانيا نزلت متساوقة متناسقة مع عمـر الانسانية وتلبيـــة لحاجاتها . كما يولد الانسان طفلا .. ثم يمضى فى مراحل النمو .. يافعا فشابا ثم يسوى بعد ذلك رجلا ..

وكما أن لكل مرحلة من مراحل نموه منهجا خاصا .. ومعلومات محدودة تناسب مقدرته العقلية .. فكذلك الديانات ..

لقد تفتحت عين البشرية على الكون طفلة تحبو .. ثم مضت فى طريقها المرسوم تمتد طولا وعرضا .. والرسالات الهابطة عليها من السماء كانت تساوق طاقاتها وعلى قدر حاجاتها .. وتنوع مشكلاتها .

وبعد أن بلغت رشدها .. فنضج عقلها وكمل استعدادها .. جاءتهـــا الرسالة الكاملة الشاملة .. جاءها دين عالمى .. على يد زعيم عالمى .

جاءها دين لا يجعل من الانسان مواطنا عالميا .. بل يخـــلق منـــه مواطنا تاريخيا ! يأخذ من الماضى ليصب فى الحاضر .. ومن الحاضر ليبنى مستقبلا واعدا ماجدا .. جاءها دين الاسلام .. على يد رسول السلام .. محمد صلى الله عليه وسلم ..

(والى العدد القادم ان شاء الله)

محمود محمد عماره

المدرس بمعهد دسوق الدينى